

# أبو العناية

اسم ونسبه

جاء في الأغاني فيما يختص بنسب أبي العناية : أبو العناية لقب غالب عليه ، واسمه إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان مولى عنزة ، وكنيته : أبو إسحاق ، وأمه : أم زيد بنت المحاربي ، مولى بنى زهرة.

مسمى حنيته

كلمة "عنابة" تدل على معانٍ كثيرة؛ يقول بن منظور في "السان العرب": "عنه في العلم أولع به وحرص عليه، والعناية والعناية مصدر "عنه"؛ مثل الرفاهة والرفاهية، والعناية ضلال الناس من التجن والدهش، والتعنة المبالغة في الملبس والمأكل، ورجل عنابة أحمق، وتعنة تنظر.

قيل في ذلك أسباب كثيرة نرجح منها : أنه كني بأبي العناية لقول الخليفة المهدى له " أنت إنسان متحذلق معه " فاستوت من ذلك كنيته التي غلت عليه دون اسمه .

مولده ونهايته

ولد أبو العناية سنة : " ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م " ونشأ بالكوفة منذ صغره ، وكانت ولادة الشاعر في عين التمر، وهي قرية قرب الأنبار غربي الكوفة سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٨ م وانتقل مع أبيه صغيراً إلى الكوفة، وكانت الكوفة مدينة العلماء والمحاذين والعباد والزهاد، وقد عاصر فيها الشاعر أمثل علقة بن قيس، وعمرو بن عتبة بن فرقان، والربيع بن خيثم، وأوبيس القرني، والنخعي، والشعبي، وسفيان الثوري، وأبي حنيفة، والكسائي، والفراء وهناك أقام يحمل بين جنبيه وفي أعماقه ، تلك الرفاهية المفرطة في الإحساس وفي الشعور ، وقد شب وفي نفسه شاعرية قوية ، قادته إلى مدارج المجد في بغداد .

نشأ أبو العناية نشأةً متواضعةً؛ إذ كان أبوه وأهله يصنّعون الفخار، وعمل أبو العناية أيضًا في صناعة أبيه، فكان يحمل الفخار في قفصٍ على ظهره، ويَدُور بها في الكوفة لبيعها.

أوصافه

روى أبو الفرج عن محمد بن موسى قال : " كان أبو العناية قضييفاً ، أبيض اللون أسود الشعر ، له وفرة جعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة . "

قال أبو العتاهية عن نفسه : " لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لفعلت " . ولم يكن أبو العتاهية مغاليا في قوله هذا ، فمن يطالع ما كتب عنه يجد الكثير من الشواهد التي تؤكد على أنه كان شاعرا مطبوعا مجيدا ، جمع بين غزارة المادة وسهولة النظم . وقد روي عنه أنه : " كان حلو الإنشاد ، مليح الحركات ، شديد الطرف ، أقدر الناس على وزن الكلام ، حتى أنه كان يتكلم بالشعر في جميع حالاته ويخاطب به جميع الناس " . وسئل يوما : " أتعرف العروض ؟ فقال : أنا أكبر من العروض " . ودليل صدقه على قوله هذا ، أن له أوزانا لا تدخل في العروض مع حسن نظمها.

وخروجه على العروض يدل على أنه كان يميل إلى التجديد في الشعر ، أن لم يكن أحد مبتكريه ، فقد حرر نفسه من التعقيد بالمعاني والألفاظ والأوزان وأتى بمعانٍ جديدة .. قال عنه المبرد في الكامل : " كان اسماعيل بن القاسم أبو العتاهية حسن الشعر ، قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ، ويخرج القول منه لمخرج النفس ، قوة وسهولة واقتدارا .. " وقد أقر معاصره أبي العتاهية له بالتفوق على عصره بشعره .. حيث ذكر اليزيدي عن الفراء قال : " دخلت على جعفر بن يحيى فقال : يا أبا زكريا ما تقول فيما أقول ؟ قلت وما تقول ؟ قال : أزعم أن أبي العتاهية أشعر هذا العصر ، فقلت هو والله قولي ، وهو أشعرهم عندي " . وسئل أبو نواس وسلم الخاسر وغيرهما عن أبي العتاهية فقالوا : " هو أشعر الإنس والجن " . وقال عنه مصعب بن عبد الله : " هو أشعر الناس " .. وقال عنه ابن الأعرابي : " لم أر شاعرا أطبع ولا أقدر على بيت منه ، وما أحسب مذهبة إلا ضربا من السحر " .

### من الكوفة إلى بغداد

ثمة تطور كبير حدث في مسار حياة أبي العتاهية ، فأثر في شعره تأثيرا كبيرا ، وذلك بعد أن قدم إلى بغداد واستقر بها .. ففي بغداد نمت شخصيته واكتسبت ألوانا من الصقل والنمواء بفعل تغير الظروف والملابسات في نفسه ومن حوله . وليس من الغريب أن تحدث بغداد كل هذا الأثر في نفس شاعرنا ، ذلك أنها كانت قد بلغت من الرقي والتقدم ما جعلها ملتقى الأنظار ، ومحط الرحال لمختلف الأجناس ، وهي وبالتالي حاضرة الدولة الإسلامية ، ومركز إشعاع للعلم والمعرفة ، لا غنى لكل من ينشد الكمال والارتقاء في أي مجال من مجالات الحياة ، من أن يشد إليها الرحال ، ويهرج في سبيلها الأهل والعياش . لذا فقد شد أبو العتاهية إليها رحاله واستوطنه كغيره بها ، ومن ثم فقد كان لها في نفسه وفي تكوين شخصيته الأثر الفاعل والمؤثر . فما أن مرت عليه أيام قلائل حتى أصبح له كيان جديد واعتبار آخر .. فقد ذاع شعره وطار صيته بين الناس وأصبح موضع اهتمامهم . غير أن هذا كله لا يسقط ما للكوفة من أثر في تكوينه واستعداده ونضوجه المبكر .. فهو وإن لم ينزل بها قسطا وافرا من العلم والمعرفة ، إلا أنه لم يكن بمعزل عن النشاط العقلي والإزدهار الفني اللذين كانت تزرع بهما الكوفة . هذا بالإضافة إلى أنه - وكما نعرف - كان قد قضى من عمره في الكوفة مدة ثلاثة

عاما ، زخرت نفسه خلالها بالطموح البعيد والأمانى العراض .. وكان إلى جانب ذلك يملك من الاستعدادات والقدرات الفكرية قدرًا كافيا ، ومن النضج المبكر الذي يلاحظ في ظهور ملكاته الفنية في وقت مبكر . وهذا ما يفسر لنا مقدرته على الوقوف على أقدام ثابتة أمام الخليفة في بغداد ، وربما كان قد حظي في الكوفة بنصيب وافر من الثقافة والمعرفة ، وإن لم يكن يعدل ذلك القسط الأوفر والحفظ الأكمل بعد استقراره ببغداد ، الشئ الذي عمل على تخلص شخصيته وميوله من تلك الشوائب التي كانت تلوث سلوكه في مقتبل عمره . فقد روى أن أبو العناية كان يسكن الكوفة ، فلما رأى اقتداره على الشعر ، قدم مع إبراهيم الموصلي إلى بغداد ثم افترقا ، ونزل هو الحيرة ، ثم اشتهر ذكره وسمع به الخليفة المهدى فأقدمه إلى بغداد ، فدخل عليه أبو العناية وامتدحه ونال جوائزه . ثم اتصل بالخلفاء من بعده ، وله أخبار مختلفة مع الهادى وهارون الرشيد والأمين والمأمون ، وكلهم كانوا معجبين بأشعاره ، وأثنوا عليه صلاتهم وقدموه على غيره ، لأنه كان إلى جانب نبوغه واقتداره على قول الشعر " حلو الإنجاد ، مليح الحركات ، شديد الطب ، حسن الهيئة والمظهر ، حلو الكلام لينه " . • ولكن ما ثبت أن عدل عن قول الشعر إلى التصوف ، فترك منادمة الخلفاء ، وتزهد ، وأخذ يذكر الموت وأهواله ، فحبسه الرشيد ثم رضي عنه فأطلقه ، فعاد إلى الشعر ، ولكنه ترك الغزل والهجاء حتى توفي.

#### أبو العناية المزامد:

عدل أبو العناية في أخرىات عمره ، إلى الزهد والتتصوف ، وقيل أنه ترك منادمة الرشيد ، وكان قبلًا لا يفارقه في سفر ولا حضر وفي أيام الرشيد تنسّك أبو العناية، وزهد في الدنيا، وداخل العلماء والصالحين، ونظم ما استفاد من أهل العلم، فكان نظمه في الزهد والمواعظ والحكم لا مثيل له، وكأنه مأخوذ من الكتاب والسنة.

صار الزهد مذهبًا لأبي العناية، وطار شعره على الألسنة، وأقبل عليه جمهور من الخاصة والعامة.

ويكفي أن نشير إلى تعصّب الرشيد لأبي العناية، وتقديمه شعره على شعر كثير من الفحول من معاصريه، وأمام العامة فكان أبو العناية يُلقي عليهم شعره في المحافل، فيزدحمون من حوله لسماعه ويصفقون له ويتجاوزون معه؛ لإحساسهم بأنّه يعبر عن إحساساتهم الدينية، وميولهم الروحية.

لقد زهد أبو العناية في الدنيا، وفي لذائذها وشهواتها، وخاف الموت وما بعده، وخوف منه، وذكر من ذلك كثيراً في شعره مما يعين أهل العقل والدين والقوى، ويعيّنهم على الزهد في الدنيا.

وبعد هذا تأتي أشعاره الكثيرة التي يشكو فيها من ظلم الناس وحسدهم إياه، أو التي تدل على حسن اعتقاده، وسلامة دينه، ونزعته إلى الزهد والوعظ والحكمة؛ لتأكيد أنَّ الرجل قد تاب حقًا وزهد في الدنيا صدقًا وتاب توبة صادقة وسلك طريقاً حميدة ، وزهد في الدنيا ، ومال إلى الطريقة المثلث ، وداخل العلماء والصالحين ، ونور الله قلبه .. يذكر أبو الفرج : " أنه تنسك

وتاب ، وحج راجلا على قدميه ، ومات على توبة واقلاع ومذهب جميل " . ويؤيد هذه التوبة الكثير من أشعاره في الزهد بعد ذلك ، وبالأخص القصيدة الرائعة التي هزت كيانه ولبس بعدها التصوف ، والتي يقول في مطلعها:

قطعت منك حبائل الآمال وحططت عن ظهر المطى رحالي

وقد كان للزهد في نفسه جذورا قديمة ، حيث كان يميل منذ حداثة سنه إلى ذكر الموت والقبور . ونحن حينما نطالع أوليات شعره ، وقت كان يبعث مع الفتيا ، نجد فيه ذكرا للموت وللقبور ، وإشارة مبدئية واضحة إلى جنوح نفسه المبكر إلى نبذ الحياة وأضرابها:

ساكني الأجداد أنتم مثنا بالأمس كنتم  
ليت شعري ما صنعتم أربحتم أم خسرتم

وفي الكثير من أشعاره نجد شعورا بالندم على ما فرط في جنب الله ، واجترح من خطايا في أول دنياه ، حيث نجده يتضرع إلى الله ، يطلب منه العفو والصفح عنه ، وهذا دليل على عاطفة قوية صادقة مفعمة بروح التوبة والندم العميق:

إلهي لا تعذبني فإني مقر بالذى قد كان مني  
فمالى حيلة إلا رجائى بعفوك إن عفوت وحسن ظنى  
وكم من زلة لي في الخطايا وأنت على ذو فضل ومن  
إذا فكرت في ندمي عليها عضضت أناملى وقرعت سني  
أجن بزهرة الدنيا جنونا وأقطع طول عمري بالتمني  
 ولو أني صدقت الزهد عنها قلبت لها ظهر المجن  
يظن الناس خيرا وإنى لشر الناس إن لم تعف عنى

هكذا نراه بعدما أحس بالندم يعلن التوبة ويطلب العفو والغفران في صبر وإلحاح ، فقد قيل أنه بعد أن تنسك جعل يحج كل سنة .. لكن أبو العناية ، الذي تحامل عليه الناس في حياته ، كان مقدرا له أن يظلم حيا وميتا . فاما وهو حي فقد حدث الخليل النوشاني قال : أتنا أبو العناية إلى منزلنا ، فقال : زعم الناس أنتي زنديق ، والله ما ديني إلا التوحيد . فقلنا : قل شيئاً نتحدث به عنك ، فقال :

إلا أننا كلنا بأئد وأي بنى آدم خالد  
وبدوهم كان من ربهم وكل إلى ربه عائد  
فيما عجبًا كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد  
ولله في كل تحريكه علينا وتسكينة شاهد  
وفي كل شئ له آية تدل على أنه واحد

غير أننا لا نعجب من ذلك ، فلربما قدر له - وكما أسلفنا - أن يظلم حيا وميتا:  
يا رب إن الناس لا ينصفونني وإن أنا لم أنصفهم ظلموني

ومن ذلك تشوقه إلى حياة الزهد الحقيقية، التي يراها في قوله:

رَغِيفُ خُبْزٍ يَابِسٌ  
تَأْكُلُهُ فِي زَاوِيَةٍ  
وَكُوزٌ مَاءٌ بَارِدٌ  
تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيَةٍ  
وَغُرْفَةٌ ضَيْقَةٌ  
نَفْسُكَ فِيهَا حَالِيَةٌ  
أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعْزِلٍ  
عَنِ الْوَرَى فِي نَاحِيَةٍ

ومن يقرأ في أرجوزته المزدوجة التي أسماها "ذات الأمثال"، يدرك أنه كان يستوحى عقلًا واعيًا ونظرًا ثاقبةً وفكراً، وأنه فكر وتأمل فوقَ على ما في الحياة من خيرٍ وشرٍّ، وأدرك أنَّ على الإنسان أنْ ينمِي فطرةَ الخير فيه، ويقاوم منازع الشر، ومنها قوله:

إِنَّ الشَّبَابَ وَالْفَرَاغَ وَالْجِدَادَ  
مَفْسَدَةٌ لِلْمَرْءِ أَيُّ مَفْسَدَةٍ  
هِيَ الْمَقَادِيرُ فَلَمْنِي أَوْ فَدَرَ  
إِنْ كُنْتُ أَخْطَأْتُ فَمَا أَخْطَأَ الْقَدَرَ  
مَا انتَفَعَ الْمَرْءُ بِمِثْلِ عَقْلِهِ  
وَخَيْرُ ذُرْ الْمَرْءِ حُسْنُ فِعْلِهِ

الأثر الديني في شعره

بخلاف ما قيل ويقال عنه ، كان أبو العتاية مسلماً يؤمن بالله وبحدوث العالم ويقول بالبعث والحساب واليوم الآخر .. يصرح في شعره بالدينونة والحساب ويستشف الكثير من معانيه من الكتاب والسنة . لكنه وعلى الرغم من هذا كله ، أتهم بالكفر والزندة تارة ، وبأنه يقول بمذهب الفلسفه ومن لا يؤمنون بالبعث تارة أخرى .. واعتمدوا في قولهم عليه على الكثير من الظن الذي هو أقرب إلى الشك منه إلى اليقين . ومما لا شك فيه أنهم قد ظلموه أياً ما ظلم ، ذلك أنه لا يحمل في شعره رسالة جديدة ، ولا يضع مبادئ فلسفية خاصة ، وإنما يضع روح

الدين ومبادئه في معانٍ جديدة وقوالب شعرية تدعى إلى احتقار الحياة الدنيا وتعظيم الآخرة . ومن العجب أن يقول البعض عليه دون أن يكلف نفسه عناء النظر الفاحص إلى شعره ولا حتى مطالعة ما كتب عنه الثقات من أدباء عصره . ولو فعل البعض ذلك وتريث في إصدار الحكم عليه لوجده بخلاف بقية الشعراء ، يتزي بزى الفقراء ، ويتجنى بأناشيد الزهد ، ويهرج الخلفاء ، ويمتنع عن قول الغزل فيسجن ويغذب من أجل أن يعود إلى الغزل ، لكنه يأبى ذلك إلى أن يموت ، فهل ثمة شاعر آخر فعل ما فعل هو .. ؟ أليس من الغريب إذن أن لا أحد من قرأت لهم ، من كتب عنه منصفاً وعادلاً في حكمه عليه غير الأستاذ أنيس المقدسي الذي يبرر ما نسب إليه بقوله : " أما زندقته واتهامه بمذهب الفلسفه فليس في شعره ما يثبتها ، ولم يذكره ابن النديم في جملة شعراء الزنادقة الذين عاصروا أبي العتاهية ". ويقول عنه أيضاً : " أقرأ كل ديوانه فلا ترى إلا ، دعوة إلى التحرر من قيود المطامع ... فانت في ذلك وفي سائر شعره أمام منبر واعظ ، يرشدك إلى سبيل القناعة ، سبيل الخير كما ينص عليها الدين " . أليس من الغريب إذن أن يرمي أبي العتاهية بالزنادقة والمجون والكفر ، وهو الشاعر الوحيد الذي تفرغ تفرغاً يكاد يكون كاملاً، للزهد ودعوة الناس إلى الزهد ، في وقت تفشى فيه المجون والفسق وكثير فيه الإلحاد والكفر . أليس من الغريب أيضاً ، أن نطالع لنقادنا الذين يقلبون الحقائق رأساً على عقب ، أدلةهم التي لا تقبل الشك عن إيمان وصدق توبية أبي نواس . ولعلك قد تعجب أكثر إذا علمت أن هناك من يؤكد على أن الله نفسه قد تاب على أبي نواس وغفر له ما قد أسلف ، وعده البعض الآخر من أهل الجنة ، لأنه قال أبيات قلائل في آخريات أيامه مقرأ فيها بذنبه .. فلماذا إذن يختلف الرأي فيما خلف لنا ديواناً كاملاً في الزهد .. ؟ أبي العتاهية ليس في حاجة أن نسوق من أجله الأدلة والبراهين على صدق إيمانه ، فبخلاف سيرته الذاتية تجد في ديوانه الكثير من الأدلة والبراهين مما يدحض حجج وأباطيل خصومه وشائئنه . يقال - وكما أسلفنا - إن شعر أبي العتاهية يدعو إلى نبذ الدنيا والتجرد والانقطاع للأخرة . ويقال عنه ظلماً أنه يقول بمذهب الفلسفه من لا يؤمنون بالبعث والحساب . ويقال عنه أيضاً أنه لا يؤمن بالله ولا بحدود العالم ، وأنه في شعره يصرح بالموت والفناء دون ذكر النشور والمبعث . وقبل أن أترك أبي العتاهية يدافع عن نفسه وبينفسه ، أذكر القارئ بالعصر الذي كان يعيش فيه وببغداد التي كانت تحضن الكثير من شعراء المجون الذين يشيعون الفسق والرذيلة والفساد بين الناس . كان أبي العتاهية دائم التوكل على الله كثير الحمد له ، راض بالحاضر إذا قورن بالمستقبل ، متخدًا من أحداث الزمان وكر الأيام مواعظاً وعبرًا :

أنا بالله وحده وإليه إنما الخير كله في يديه  
 أحمد الله وهو ألهمني الحمد على المن والمزيد لديه  
 كم زمان بكى منه قديماً ثم لما مضى بكى عليه

هكذا ينطق أبو العتاهية ، بإيمانه المطلق وشاعريته الجليلة ولحنـه الشجي ، بكلماته الصادقة ومعانيـه الرفيعة السامية ، ينطلق بروح الداعية الذي لا يسام ، يندد بمطامع الإنسان وأباطيل الحياة ، ولهذا فقد شاع شعره بين الناس وتناقلـه الألسـن واهتمـ به العامة والخاصة . لقد كان في دعوته شديد التأثر بمبادئ الإسلام ، ويضمـن معانيـه في أشعاره بطريقة لا تخـلو من براعة وذكاء:

ألا إلى الله تصير الأمور ما أنتِ يا دنياي إلا غرور  
إن امرءاً يصفو له عيشة لغافل عما تجن القبور

مقتبساً هذا المعنى من قوله تعالى : " ألا إلى الله تصير الأمور. "

ويقول مشجعاً على ذكر الله وعبادته وشكره :

للله عاقبة الأمور طوبى لمعتبر ذكور  
طوبى لكل مراقب ولكل أواب شكور

من قوله تعالى : " والله عاقبة الأمور. "

ولو أردنا أن نتفصّل ما اقتبسه أبو العاتية من القرآن والسنة لوجدنا ذلك شيئاً كثيراً ،  
يطالعنا في زهدياته ، في كل قصيدة ، وفي كل صفحة من ديوانه أو ما يقرب ذلك ، ولقد لاحظ  
ذلك القدماء والمحدثون . يرى ابن المعتز أنه في قوله :

فانظر بعينيك حيث شئت فلن ترى إلا بخيلاً

أراد ما في سورة الإسراء " قل لو كنتم تملكون خزائن رحمة ربكم لأمسكتم خشية الإنفاق ،  
وكان الإنسان فتوراً " . وفي قوله :

يا أيها الرجل الحريص أما ترى أعلام وجهك كل يوم تدرس  
بك لا أبا لك قد خلقت موكلًا ملك يعد عليك ما تتنفس

تراه قد ألبس هذا المعنى الذي تفهمه من قوله تعالى: " وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عيده  
"

وأيضاً في قوله ، وكما يرى المبرد :

وقد يهلك الإنسان من باب أمنه وينجو بإذن الله من حيث غدر

ومعنى ذلك واضح أخذه من الآية الكريمة التي تقول : " عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم  
" . وأبو العاتية ، بالرغم مما قيل عنه ، يقر بوحدانية الله وتفرده في الكثير من قصائده ،  
 فهو حين يقول :

شهدنا لك اللهم أن لست والد ولكنك المولى ولست بمولود

يذكرك بقوله تعالى " : قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد "

وأخبر أحمد الأزدي قال ، قال لي أبو العتاهية: " لم أقل شيئاً قط أحب إلىَّ من هذين البيتين:

ليت شعري فإنني لست أدرى أي يوم يكون آخر عمري  
وبأي البلاد يقبض روحي وبأي البلاد يحفر قبري "

ومؤدى هذين البيتين وكما هو واضح مستوحى من الآية الكريمة " : وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأي أرض تموت " . وروى أبو الفرج أن ثامة بن أشرس قال : أشدني أبو العتاهية :

إذا المرء لن ينفق من المال نفسه تملكه المال الذي هو مالكه  
إلا إنما مالي الذي أنا منفق وليس المال الذي أنا تاركه  
إذا كنت ذا مال فبادر به الذي يحق وإلا استهلكته مهالكه

فقلت له : من أين قضيت بهذا . . ؟ قال : من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنما لك من مالك ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت " . وحدث الصولي عن محمد بن أبي العتاهية قال : جاذب رجل من كانة أبا العتاهية في شيء ، ففاخر عليه الكناني واستطاع بقوم من أهله ، فقال أبو العتاهية :

دعني من ذكر أبٍ وجده ونسب يعليك سور المجد  
ما الفخر إلا في التقوى والزهد وطاعة تعطي جنان الخلد

وأنت ترى أنه قد استقى هذا المعنى الذي ضمنه هذين البيتين من قول الرسول الكريم : " لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتفوى " . وكذلك نرى معنى هذا الحديث في قوله ، عندما غير بمهنة الحجامة التي اشتغل بها بعض الوقت :

إلا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر وعدم  
وليس على عبد تقيٍّ نقىصةٌ إذا صلح التقوى وإن حاك أو حجم

وأخيراً إلا ترى معي في هذا البيت :

ولا تدع مكسباً حلالاً تكن منه على بيان

معنى قوله صلى الله عليه وسلم : " إن الله يحب التاجر الصدوق والصانع الناصح لأنَّه حكيم " وبهذه الأمثلة يتبيَّن لنا سر ذلك الطابع المميز وتلك المعانِي الجليلة الواضحة التي تفرد بها أبو العتاهية عن بقية شعراء عصره .. يقول طه حسين في مقارنة أجراها بين أبي العتاهية وأبي العلاء المعري : " كان أبو العلاء يستقصي من الفلسفة ولا يتقيَّد بالدين ، وكان أبو العتاهية يستقصي من الدين ويتقىَّد به ، وهذا الفرق ظاهر في شعر الرجلين . "

استطاع أبو العناية أن يصل إلى منزلة رفيعة ومكانة مشرفة في القصر وبين الشعراء وعامة الناس .. والرجل الطموح لا يتخلى أبداً عما كسب بنبوغه وتفوقه إلا إذا كان في سبيل الإرتقاء إلى منزلة أعلى مكانة أسمى . وأبو العناية لا كغيره من الشعراء ، تخلى عن المكانة الرفيعة والمنزلة المشرفة التي نالها ، وهجر مجالس الخلفاء ونوادي الشعراء ، واعتزل الناس ليعيش حياة العزلة والتفرد . فهل كان وراء ذلك ثمة سبب وجيه يفسر لنا سر هذا التجدد والانقطاع عن مخالطة الناس ؟ ذات يوم اجتمع الشعراء على باب الرشيد ، فأند لهم فدخلوا عليه ، وأنشدوا .  
فأنشد أبو العناية :

يَا مَنْ تَبْغِي زَمَنًا صَالِحًا صَلَاحُ هَارُونَ صَلَاحُ الزَّمْنِ  
كُلُّ لِسَانٍ هُوَ فِي مَلْكِهِ بِالشُّكْرِ فِي إِحْسَانِهِ مُرْتَهِنٌ

فاهتز الرشيد طرباً وقال له : أحسنت والله . وقيل أنه : " ما خرج في ذلك اليوم أحد من الشعراء بصلة غيره " . قضى أبو العناية مدة في عيشة ال�باء والبسط بين حاشية الخلفاء ، يحضر مجالسهم ويطربيهم بشعره . ويقال أنه اتصل بموسى الهادي بعد موت المهدي ، ثم بالرشيد بعد موت الهادي فنادمه ، ولكنه ما لبث أن ترك منادمه بعدما تنسك وعدل عن قول الشعر إلى التصوف والزهد ، وطقق يذكر الموت وأهواه ، فحبسه الرشيد ، ثم رضى عنه فأطلقه ، فعاد إلى الشعر ، ولكنه ترك الغزل والهجاء ، غير مبال في ذلك من أن يفقد مكانته الرفيعة في القصر ، وأن يحبس ويذبح . أمره الرشيد ذات يوم أن يقول شعراً في الغزل ، فامتنع ، فضربه الرشيد ستين عصا ، وحبسه ، وحلف إلا يطلق سراحه حتى يقول شعراً في الغزل . وأخبرنا محمد بن يزيد : بلغني أن الرشيد لما ضرب أبو العناية وكل به صاحب خبر يكتب إليه بكل ما يسمعه ، فكتب إليه أنه سمعه ينشد :

أَمَا وَاللَّهِ إِنَّ الظَّالِمَ لَوْمٌ وَمَا زَالَ الْمُسْنِيُّ هُوَ الظُّلُومُ

إلى ديان يوم الدين نمضي وعند الله تجتمع الخصوم قال : فبكى الرشيد ، وأمر بإحضار أبي العناية وإطلاقه ، وأمر له بـ ألفي دينار .

إنك تحس دائماً في كلماته ، نبرة من الصدق والثبات على المبدأ .. استمع إليه وهو يهجو الملوك :

إِنَّ الْمُلُوكَ بِلَاءٌ حَيْثُمَا حَلَّوْا فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظُلْلٌ  
مَاذَا تَرْجُى بِقَوْمٍ إِنْ هُمْ غَضِيبُوا جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضِيَتْهُمْ مَلَوْا  
وَإِنْ نَصَحْتْ لَهُمْ ظَنُوكَ تَخْدِعُهُمْ وَاسْتَقْلُوكَ كَمَا يَسْتَقْلُ الظَّلْلُ  
فَاسْتَغْفِنْ بِاللهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ كَرْمًا إِنَّ الْوَقْوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذَلِكَ

وقال أبو العتاهية : ماتت بنت المهدى ، فحزن المهدى عليها حزنا شديدا حتى امتنع عن الطعام والشراب ، فقلت أبياتاً أعزيه بها ، فوافيته وقد سلا وضحك وأكل وهو يقول : " لا بد من الصبر على ما لا بد منه ، ولنن سلونا عنمن فقدنا ، ليسلون عننا من يفقدنا ، وما يأتي الليل والنهر على شئ إلا أبلياه " . فلما سمعت هذا منه قلت : يا أمير المؤمنين ، أتاذن لي أن أشدك ؟ قال : هات ، فأأنشدته:

ما للجدين لا يبلى اختلافهما وكل غصن جديد فيهما باليا من سلا عن حبيب بعد ميتته كم بعد موتك أيضا عنك من سال كان كل نعيم أنت ذائقه من لذة العيش يحكي لمعة الآل لتلعبن بك الدنيا وأنت ترى ما شئت من عبر فيها وأمثال ما حيلة الموت إلا كل صالحة وإنما حيلة فيه لمحتال

فهذا قول شديد يقول يلقىه في وجه الخليفة ، فيه تعريض لاذع ، ولكنه مغلف بنسيج الوعظ ، وموشى بصياغة التزهيد التي يجعل ثقيله سهلا بل محبوبا إلى نفس المهدى الذي قال له بعد الإنجاد : " أحسنت وتحك وأصبت ما في نفسي ووعلت وأوجزت " . ثم يعدل عن منادمة الخلفاء إلى الزهد والتتصوف ، وتاب توبة صادقة ابتعدت به حتى عن الناس الذين كانت لهم معهم قصة أخرى . فقد لقى من الناس ضلالا وفسادا ، كما وجد منهم عنتا وبلاء ، ف تكونت في نفسه هذه الصورة القاتمة عنهم:

برمت الناس وأخلاقهم فصرت أستائس بالوحدة  
ما أكثر الناس لمعمر وما أقلهم في منتهي العدة

والواقع أنه كان بربما بالناس ساختطا عليهم . فقد حدث روح بن الفرج قال : " شاور رجل أبا العتاهية فيما ينقشه على خاتم ، فقال : أنقش عليه : لعنة الله على الناس ، وأنشد البيتين السابقين " . وفي الحق أن أبا العتاهية كان يشعر في معاملتهم له بالكثير من النقص والهوان . فقد حدث الصولي عن محمد بن أبي العتاهية قال : جاذب رجل من كنانة أبا العتاهية في شيء ففخر عليه الكناني ، واستطاع بقوم من أهله ، فقال أبو العتاهية :

دعني من ذكر أب وجد ونسب يعليك سور المجد  
ما الفخر إلا في التقى والزهد وطاعة تعطي جنان الخلد

ولعل هذا هو السبب والوجه الذي كان يقود أبا العتاهية إلى التصوف واعتزال الناس .. وقد كان الناس لا يكفون عن ملاحظته ، يعيرونها بنسبة تارة وبمهنته تارة أخرى ، ولا يجد أبو العتاهية ما يدفع به أذاهم عنه إلا أن يقول:

ألا إنما التقوى هي العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر وعدم  
وليس على عبد تقى نقيصة إذا صاح التقوى وإن حاك أو حجم

وعن مناسبة هذين البيتين ، أخبر يحيى بن خالد أن أبا العتاهية قد نسخ ، وأنه جلس يحجم الناس للأجر تواضعاً بذلك ، فقال : ألم يكن يبيع الجرار قبل ذلك ؟ فقيل له : بلى ، فقال : أما في بيع الجرار من الذل ما يكفيه ، ويستغني به عن الحجامة . لهذا فقد اعتزل الناس ، واعتزل أيضاً الخلفاء والأمراء ، وهذا دليل صدق على تنسكه وزهده في وقت كان يتودد فيه كبار الشعراء بشعراهم طالبين الشهرة والمال . وهكذا آثر أبو العتاهية العزلة والوحدة ، وطفق يردد في شعره أن اعتزال الناس والبعد عنهم هو الخير والسداد والصلاح :

ساقع قلبي أن يحن إليهم وأحجب عنهم ناظري وجفوني  
وأقطع أيامي بيوم سهولة أزجي به عمري ويوم حزوني

أو يردد قوله :

الخير والشر عادات وأهواء وقد يكون من الأحباب أعداء  
كل له سعيه والسعى مختلف وكل نفس لها من سعيها شاء

ولأنه رأى أن سعيه مختلف عن سعيهم ، فقد قرر عن تجربة أن يعتزلهم ، ويقنع بما قسم الله له :

رغيف خبز يابس تأكله في زاوية  
وكوب ماء بارد تشربه من صافية  
وغرفة ضيقة نفسك فيها خالية  
أو مسجد بمعزل عن الورى في ناحية  
تدرس فيه دفترا مستندًا بسارية  
معتبراً بمن مضى من القرون الخالية

وهكذا يؤكد دائماً أنه شاعر صادق لا ككل الشعراء الذين يركضون خلف أنوفهم إلى موائد الخلفاء . إن دليل الصدق الذي نراه في هذه الأبيات لا يحتاج منا إلى كثير تمعن ، ويكتفى أن نقول أنه قد رغب عن موائد الخلفاء ، تلك التي كانت غاية الأمل بالنسبة لغيره ، إلى كسرة خبز وماء ولشئ كان في نفسه :

إذا كنت في الدنيا بصيراً فإنما بلاغك منها مثل زاد المسافر

هذا هو أبو العتاهية الحكيم الزاهد ، الذي يأخذ نفسه بما يقول ، قبل أن يصدره إلى الناس ..  
قال له المأمون يوماً " : أنشدني أحسن ما قلت في الموت " .. فأنشده :

أنساك محياك المماتا فطلبت في الدنيا الثبات  
أوثقت بالدنيا وانت ترى جماعتها شتاتا  
وعزمت منك على الحياة وطولها عزما باتا  
يا من رأى أبويه فيمن قد رأى كان فماتا  
هل فيه ما لك عبرة أم خلت أن لك انفلاتا

ولقد اتخذ أبو العناية العبرة من نفسه ، وأبحر في الاتجاه الآخر المغاير لاتجاهات  
الناس وميولهم وأهوائهم ليمشي وحده ويموت وحده.

### أقوال وأراء الشعراء فيه

قيل أنه أتى الشهزوري سلما الخاسر وقال له : أنسدني لنفسك . قال : لا ، ولكن أشدك  
لأشعر الجن والإنس ، لأبى العناية ، ثم أشده قوله:

سكن يبقى له سكن ما بهذا يؤذن الزمن  
نحن في دار يخبرنا ببلها ناطق لسن

دار سوء لم يدم فرح لإمرئ فيها ولا حزن  
في سبيل الله أنفسنا كلنا بالموت مرتهن

كل نفس عند ميتها حظها من مالها كفن  
إن مال المرء ليس له منه إلا ذكره الحسن

وقيل لأبى نواس : أنت أشعر الناس ، فقال : أما والشيخ حي فلا " يعني أبا العناية ".  
وقال أيضا : والله ما رأيت أبا العناية قط إلا ظننت أنه سماء وإن أرض .  
وقال أبو تمام : لأبى العناية خمسة أبيات ما شاركه فيها أحد ولا قدر على مثلها متقدم ولا  
متاخر وهي:

\* الناس في غلاتهم ورحى المنية تطعن  
\* ألم تر أن الفقير يرجى له الغنى وأن الغني يخشى عليه من الفقر  
\* ولما استقلوا بأثقالهم وقد أزمعوا الذي أزمعوا  
\* قرنت التفاني بأثارهم واتبعتهم مقلاة تدمع  
\* هب الدنيا تصير إليك عفوا أليس مصير ذاك إلى الزوال

وقال بشار لأشجع ، وقد سمع شعرا لأبى العناية في المهدي : ويحك يا أخا سليم ، أترى  
ال الخليفة لم يطر من فراشه طربا لما يأتي به هذا الكوفي .. ؟

وقال بشار لأبي العتاهية : أنا والله استحسن اعتذارك من دمعك حيث تقول:

كم من صديق لي أسرقه البكاء من الحياة  
فإذا تأمل لامني فأقول : ما بي من بكاء  
لكن ذهبت لأرتدي فطرفت عيني بالرداء

ولأجل النبوغ وهذا التفوق وهذه الشاعرية الخصبة ، كان أبو العتاهية عند كل الأدباء  
والشعراء أشعر أهل زمانه بلا منازع ، ولذا فقد خصه الخلفاء بمنزلة رفيعة ، ولقى عندهم  
من الرفعة والتقدير ما لم يكن لغيره.

#### وفاته

كانت وفاته سنة 210 " هـ / 826 م " وقيل بل توفي سنة 211 هـ ، وقيل 213 هـ ، وأنه  
مات في يوم واحد هو وإبراهيم الموصلي وأبو عمر عبد السلام الشيباني في خلافة المأمون  
، ودفن حيال قطرة الزيتون في الجانب الغربي ببغداد.

### المصادر

- [١] كتاب "الأغاني" ج .٢٠.
- [٢] "تاريخ بغداد" ٦ / ٢٥٠ .
- [٣] "وفيات الأعيان" ١/٧١ .
- [٤] "ديوان المعاني" ١ / ٢٠ .
- [٥] "سمط اللالي" ١/٥٥١ .
- [٦] "الأنوار الزاهية في ديوان أبي العناية" .